موقف إخوان الصفاء و خلان الوفاء من الحرف و الصنائع

د عبد السلام همال أستاذ محاضر أ ، قسم التاريخ جامعة المسيلة

الملخـــص (باللغة العربية) :

إخوان الصفاء و خلان الوفاء اسم أطلقه أصحابه على جماعة من رجال الأدب والفكر والفلسفة من ذوي الثقافة الموسوعية تزامن ذلك مع صعود الثقافة العربية الإسلامية إلى ذروة العطاء والابتكار العلمي في القرن 4هـ/10م.

واللافت أننا اليوم نعرف اسم هذه الجماعة ، ونعرف رسائلهم ولكننا لا نعرف أسماء الذين كتبوا هذه الرسائل. ربما تعمدوا كتم أسمائهم خوفا من بطش الحكام ، و حماية لأنفسهم من طغيان العامة لأنهم كانوا يعتقدون أن المواضيع الفكرية والفلسفية والعلمية التي تطرقوا إليها لن تمر مرور الكرام .

وقد دفعوا برسائل إلى الوراقين وطلبوا منهم أن ينشروها بين مختلف الشرائح الاجتماعية، في هذه الرسائل كتب إخوان الصفاء خلاصة الثقافة التي كانت سائدة في عصرهم كما لا تخلوا هذه الرسائل من نزعة تنويرية ومن إصلاح اجتماعي لذلك تجدهم قد اقتربوا من شرائح اجتماعية دنيا وكتبوا عنهم لحرفيين والصنّاع الذين كانوا يشكلون قاعدة عريضة من سكان المملكة الإسلامية في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي.

مقدمة :

يعالج هذا المقال إشكاليتين متعلقتين بجماعة فكرية فلسفية غامضة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي و أعني بها جماعة إخوان الصفاء و خلان الوفاء الذين تضاربت الأقوال حول نشأتهم و العصر الذي ظهروا فيه و حتى أسماء الأشخاص الذين كتبوا الرسائل الشهيرة رسائل إخوان الصفاء هذا عن الإشكال الأول .

أما الإشكال الثاني يحاول الإحاطة بموقف إخوان الصفاء و خلان الوفاء من الحرفين و الصُنّاع الذين كانت تزدحم بهم الأسواق و أماكن البيع و التجارة في العصر العباسي الذي ازدهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية .

Résumé :

Les frères de Clarity et les Amis d'Honestyest un groupe d'auteurs, de penseurs et de philosophes qui avaient une culture encyclopédique.Leur émergence a coïncidé avec le triomphe de la culture islamique arabe, en termes de créativité scientifique, tout au long du 4ème siècle Hijri / 10ème siècle après JC.

De manière impressionnante, nous connaissons aujourd'hui le nom de ce groupe et leurs lettres, mais nous ne connaissons pas les noms des auteurs de ces lettres.Peut-être qu'ils cachèrent leur nom énumèrent la cruauté des dirigeants et la tyrannie du peuple, car ils pensèrent que les sujets réfléchis, philosophiques et scientifiques qu'ils abordaient ne se passeraient jamais bien.

Ils ont demandé à faire proliférer leurs lettres dans divers segments sociaux.Ces lettres contiennent l'abstraction de la culture dominante, à cet âge, car elles contiennent également une tendance éclairante et une réforme sociale.Par conséquent, nous remarquons qu'ils s'adressaient à la classe sociale inférieure, qui comprenait les artisans et les fabricants, qui étaient considérés comme la base extensive de la population du royaume islamique tout au long du 4ème siècle Hijri / 10ème siècle après JC.

Abstract:

The Clarity Brothers and Honesty Friends is a group of authors, thinkers, and philosophers, who had an encyclopaedic culture. Their emergence coincided with the Arab Islamic culture's triumph,in terms of scientific creativity, throughout the 4th century Hijri/ the 10th century A.D.

Impressively, today we know this group's name and their letters, but we don't know those letters' authors'names. Perhaps they hide their names lest the rulers' cruelty and the people's tyranny,since they thought that the thoughtful, philosophical, and scientific topics they addressed would never go well.

They askedto proliferate their letters among various social segments. Those letters contain the abstraction of the prevailing culture,at that age, as they contain an enlightening tendency and a social reformation as well. Therefore, we notice that they addressed the lower social class, which included the craftsmen and the manufacturers, who were considered as the extensive basis of the Islamic kingdom's population throughout the 4th century Hijri/ the 10th century A.D.

عصر إخوان الصفاء ضعف و انهيار الخلافة العباسية :

من الصعب فهم آراء إخوان الصفاء، والذين هم موضوع هذا البحث، دون الإلمام بالبيئة التي نشأوا فيها، وإبراز الظواهر السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية التي كانت سائدة في عصرهم أي في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي[1] والسبب في ذلك أن إخوان الصفاء كانوا ظاهرة عصر لا ظاهرة جماعة[2].

من ناحية الحكم والسياسة كان مقتل الخليفة العباسي المتوكل سنة 247هـ/869م على يد بعض قادة الجيش الأتراك بداية زوال هيبة الخلافة العباسية[3]، وتحكم العسكريين الأتـــراك في سياسة الدولة، وصار

[1] انظر، عمر الدسوقي، إخوان الصفا، دار إحياء الكتب العربية (د.ت) ص7، فؤاد معصوم، إخوان الصفا فلسفتهم وغايتهم (ط1) دمشق، دار المدى، 1998 ص، 19

[2] حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، (ط2)، بيروت، دار الفرابي، 2002، مج، 3، ص، 269

[3] انظر، الطبري، (جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الطبري، راجعه نواف الجراح (ط2) بيروت دار صادر، مج 5، ص،1963، عبد العزيز الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (الأعمال الكاملة، 4) (ط3) بيروت، مركز الوحدة العربية، 2011، ص78

الخلفاء لعبة يتسلون بها[4] فالخليفة كما يقول "الطقطقي" "في أيديهم كالأسير إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه"[5].

وفي هذه الظروف المضطربة عديمة الاستقرار اشتدت الأزمات على الرعية، وعم الحيف والظلم، فالمسيطرون على مقاليد السلطة في أعلى الهرم كان شغلهم الشاغل جمع الأموال، والاستلاء على العقارات بمختلف الأساليب الشرعية، وغير الشرعية، ولم يوّلوا أهمية لمشاكل الناس، وإيجاد الحلول الناجعة لها.[6]

ونتج عن حالة الضعف والهوان، والفراغ السياسي وانهيار مؤسسة الخلافة، انعدام الاستقرار وعموم الفوضى في الإمبراطورية المترامية الأطراف مما نجم عنه انفراط عقد وحدة البلاد السياسية فانفرد كل رئيس بناحية، واستقل كل طامح بإقليم، ولم يبق في يد الخليفة إلا بغداد وأعمالها[7]. وتحول العالم الإسلامي إلى دول كثيرة مستقلة[8]، ولكل دولة مالها وجيشها وإدارتها وقضاؤها وسكتها وأميرها، وكان القتال مستعرا بين هذه الدول، وانشغلوا بقتال أنفسهم عن قتال عدوهم.[9]

واكتمل هذا المشهد القاتم باستلاء البويهيين وهم فرس، شيعة زيدية، على مركز الخلافة في القرن الرابع الهجري وتحديدا سنة 334 هـ/945م[10]. ففيها دخل أحمد بن بويه بغداد غازيا، ومن دلائل ضعف الخليفة المستكفي بالله، ودرجة المذلة المتقدمة التي وصل إليها أنه أكرم وفادته، واحتفى به وببني بويه جميعا عندما شرفهم بالألقاب، فلقب عليا وهو أكبرهم صاحب بلاد فارس عماد الدولة، ولقب الحسن وهو الثاني، فيهم صاحب الري والجبل، ركن الدولة، ولقب أحمد صاحب العمران، معز الدولة، وزيادة في التكريم ضرب ألقابهم على السكة.[11]

---

[4] محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة العباسية (ط7) بيروت، دار النفائس، 1430 هـ، 2009م، ص، 162

[5] الطقطقي (محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، بيروت، دار صادر، (د، ت)، ص،243

[6] الطبري، المصدر السابق، مج5، ص،1977، فؤاد معصوم، إخوان الصفا فلسفتهم وغايتهم (ط1) دمشق، دار المدى، 1998، ص،20

[7] انظر، أحمد محمد عدوان، موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع،1410 هـ، 1990م، ص،4، آدم منر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، (ط4)، القاهرة، مكتبة الخانجي، بيروت، دار الكتاب العربي،1967،1387، مج 7 ص 19

[8] انظر، أحمد أمين، ظهر الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، ج 1، ص، 81

[9] ن. م

[10] ابن الأثير، (أبو الحسن علي بن أبي الكرم) الكامل في التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربي،1406، 1989، ج6، ص،314، انظر كذلك، وفاء محمد علي، الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهين، الإسكندرية المكتب الجامعي الحديث، 1991، ص،35

[11] انظر، السيوطي (جلا ل الدين أبو بكر السيوطي)، تاريخ الخلفاء، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، 1416 هـ، 1995، ص، 446

فكان مصير الخليفة العباسي تحت السيطرة البويهية شبيه مع العسكر التركي قبلهم مظهر ولا عمل، ولقب ولا أمر ولا نهي[12]. لم يكن الوضع الاجتماعي والاقتصادي في أحسن حال، تقلبات أهواء الساسة، والفساد المستشري في أوساطهم، وضعف الخلافة، وكثرة وتشعب النفقات، وتوسع الجهاز الإداري أدى إلى ابتداع ضرائب جديدة غير شرعية[13]، ولهذا كثرت شكوى الناس وتظلماتهم، وأخذت الفتن تظهر في الأسواق من حين لآخر، ونزلت الخدمات التي تقدمها الدولة إلى أدنى مستوياتها، وتدهورت الزراعة أكثر بسبب الإقطاع العسكري الذي أقامه البويهيون[14]، فالإقطاعي العسكري لا يدفع شيئا إلى خزينة الدولة وصار الإقطاعيون يتحكمون في إقطاعياتهم كسادة إقطاعيين يسيطرون على الفلاحين، وكان ديوان الجيش يتولى أمر إعادة توزيع الإقطاعات، إما لرغبة الأمير البويهي في انتزاع الإقطاعات من أصحابها أو لرغبة الجندي المقطع في الحصول على ضياع أفضل[15]. هذا الوضع ترك آثاره لدى بعض كتاب القرن الرابع، الذين عاصروا هذه الأحداث الجسام، واكتووا بنيرانها، ففي الإمتاع والمؤانسة قال أبو سليمان المنطقي:" والشغب متصل، وطلب المال لا آخر له، والمصطنع مستزيد، والمحرم ساخط، والمال ممزق[16]. وإذا انتقلنا إلى الناحية الاجتماعية فإن الشرخ كان واسعا بين فئات السكان أي العامة في أسفل الهرم، والمترفون من الخاصة في أعلى الهرم، وسرعان ما برزت آثاره المدمرة، فالفئات المحرومة من الرزق، والحياة الحرة الكريمة عبرت عن سخطها، وحقدها الدفين عن طريق الانتفاضات، والالتفاف حول حركات المعارضة، والانضمام إلى التنظيمات السرية المعادية للسلطة.[17]

ومما زاد الطين بلة هو الانقسام المذهبي السائد في المجتمع، والتناحر القائم بين مختلف المذاهب، وتغذية الحكام لهذا الصراع عن طريق الانحياز لطرف على حساب طرف آخر، ففي عهد هيمنة الأتراك كان أهل السنة يتمتعون بقسط وافر من الحرية[18]، بينما كانت السلطة ناقمة على الشيعة، ثم انقلبت الصورة في

---

[12] انظر، أحمد أمين، المرجع السابق، ج1، ص، 48

[13] فهمي سعد، العامة في بغداد في القرن الثالث والرابع الهجري، (ط1)، بيروت، دار المنتخب العربي، 1413 هـ، 1993م، ص، 69، أحمد محمد عدوان، المرجع السابق، ص، 12

[14] انظر، محمد حسين سهيل الديلمي، الإقطاع في الدولة العباسية، 447هـ، 656هـ، (ط1) بغداد، ديوان الوقف السني، 1431،2010، ص، 73

[15] محمد حسين سهيل الديلمي ، المرجع السابق ، ص،73

[16] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه، أحمد أمين، وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ت)، (ج2)، ص، 115-116

[17] فهمي سعد، المرجع السابق، ص، 267-268

[18] فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 27

العهد البويهي، حيث تنفست الشيعة الصعداء[19]، وعانت السنة الأمرين، فالبويهيون تعصبوا لمذهبهم الشيعي، رغم أن أغلبية أهل العراق، كانت سنة وتطرفوا في ذلك حتى عظمت الفتنة، وتبادلوا اللعنات والقتال، ففي سنة 351 م على سبيل المثال أمر معز الدولة، بالكتابة على المساجد بلعن أبي بكر وعمر ومعاوية .[20]

ضعف سياسي تقابله قوة و ازدهار ثقافي :

التناقض الصارخ الذي عرفه القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، والمتمثل في سوء الأوضاع السياسية، والاجتماعية والاقتصادية من جهة، وعلى طرف نقيض كان هذا القرن هو قرن نهضة، وتفوق الثقافة العربية الإسلامية، ففيه نمت واكتملت هذه الثقافة ونضجت[21]. كانت الحياة العلمية في أواخر القرن الثالث، وفي القرن الرابع أنضج من القرون السابقة، تلقف علماء هذا العصر ثمرات ترجمة العلوم إلى العربية، فهضموها وشرحوها، واستغلوا الثروة العلمية التي وصلت إليهم من قبل في كل فروع العلم.[22]

ومن مظاهر تألق هذه الثقافة انتشارها الواسع عبر مراكز متعددة عبر العالم الإسلامي، وظهور ألمع أسماء صانعيها في مختلف التخصصات.

لم تعد بغداد هي المركز الوحيد للثقافة العربية الإسلامية، وإنما ظهرت مراكز أخرى مثل القاهرة وبخارى وقرطبة وغزنة وحلب، والري، وإصبهان، وشيراز، وجرجان[23]، فمن الناحية المكانية انتشرت هذه الثقافة انتشارا واسعا، ومن حسن الحظ أن هذه المراكز الجديدة نافست بغداد في ميدان العلم والآداب. وهذا شجع الحركة العلمية والأدبية وقواها ورقاها.[24]

فالأمراء المستقلون تباهوا بتقريب الشعراء والعلماء ولم يتحرجوا من حرية القول والتفكير فاتسع مجال الرزق على أهل العلم فانتشروا في المماليك المستقلة ووفر عليهم القائمون عليها سبل العيش الكريم، والشهرة

---

[19] ن، م، انظر كذلك وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص، 63

[20] انظر، يحي أحمد عبد الهادي حسين، الفتوة في العصر العباسي الأخير 575هـ /656 هـ، شهادة ماجيستير في التاريخ بكلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية تحت إشراف عبد العزيز الدوري، محرم 1413 هـ/تموز 1992 م، ص، 74، انظر كذلك عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 14

[21] أحمد أمين، المرجع السابق، ج، 1، ص، 86، انظر كذلك مريزن سعيد، الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الحضارة والنظم الإسلامية جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1985 م، ص،48

[22] أحمد أمين، المرجع السابق، ج، 1، ص، 86

[23] انظر، وفاء محمد علي، المرجع السابق، ص، 127، حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، (ط7)، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1965، ج3، ص أ

[24] أحمد أمين، المرجع السابق، ج، 1، ص، 84

بعد أن كان محصورين في بغداد فقط فتحسنت أحوالهم المادية وتفرغوا إلى النظم والتأليف فانعكس ذلك إجابا على الفكر الإسلامي ونهض نهضة عظيمة خلال هذا العصر.[25]

فلم تعد المعارف وسيلة للتسلية وحشد المعلومات وإنما أصبح العلماء ينشدون تنظيم المعارف في مناهج علمية واضحة[26].

من هم جماعة إخوان الصفاء ؟ تاريخ غامض

في هذه الظروف نشأت ونمت جمعية إخوان الصفا في مناخ يسوده التناقض ضعف وانهيار سياسي واقتصادي واجتماعي وفي المقابل قوة وازدهار فكري وعلمي اختلف الباحثون في حقيقة إخوان الصفا قديما وحديثا في مذهبهم ودورهم فمنهم من ينظر إليهم نظرة شك وارتياب، ومنهم من ينظر إليهم نظرة إعجاب وتقدير، ويرى فيهم رواد فكر ودعاة إصلاح، ومنهم من يحسبهم على الشيعة وإلى أخر ذلك.[27]

ولعل منشأ هذا الخلاف يعود إلى شح أخبار إخوان الصفاء، فرغم خطورة رسائلهم المتضمنة لعلوم شتى، وثقافة واسعة، وتبسيط لمعضلات الفلسفة[28]، إلا أن المصادر أبت أن تفرد لهم حيزا يأتي على أخبارهم باستثناء كتاب الإمتاع والمؤانسة والمقابسات لـ: لأبي حيان التوحيدي المتوفى في مستهل القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وحتى هذا الأخير لم يقدم المادة الطيبة الكافية التي يمكن أن ترضي الباحثين.

ويظهر أن جمعية إخوان الصفاء وخلان الوفاء، نشأت بمدينة البصرة بالعراق[29]، فزيد بن رفاعة أحد أبرز رجال إخوان الصفاء الذي كان محور سؤال وجهه الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، وزير صمصام الدولة، سنة 373هـ/928 م لأبي حيان التوحيدي[30] كان قد أقام مدة طويلة بالبصرة كما يقول أبو حيان التوحيدي[31] .وذلك غير مستغرب فتاريخ البصرة منذ قرون ممتدة، حافل بالعطاء العلمي والثقافي والأدبي ففيها نشأ رجال تركوا بصمتهم في كل الميادين التي برزوا فيها من أمثال الحسن البصري ت110هـ، وواصل

---

[25] انظر، مصطفى التواتي، المثقفون والسلطة في الحضارة العربية، بيروت، دار الفارابي، 2004، ج1، ص، 115 77

[26] آدم ميتز، المرجع السابق، مج 1، ص، 319

[27] فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 13

[28] عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 4

[29] انظر، فرهاد دي دفتري، الإسماعيليون تاريخهم عقائدهم، ترجمة، سيف الدين القصير، (ط1)، بيروت،2012، ص 390

[30] انظر، أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق، حسني السندوبي، (ط1) المطبعة الرحمانية بمصر، 1347هـ، 1929، ص، 45

[31] الإمتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجعه، هيثم خليفة الطعيمي، بيروت، المكتبة العصرية، 1432-2001، ج2، ص، 163

بن عطاء، ت131هـ وفي مساجدها انتشرت وازدهرت حلقات العلوم، والفقه، والأدب، وفي مربدها أنشد الشعراء قصائدهم[32] . فليس غريبا أن تظهر جماعة إخوان الصفاء في هذه البيئة العلمية الخصبة، التي وصفت بأنها منبع العلم، وعش العلماء، كانت الأفكار تتصارع، وتغص بالعلماء والأدباء، والشعراء، وأهل الديانات المختلفة، وفي رواية التوحيدي إشارة واضحة إلى هذه البيئة العلمية، فزيد بن رفاعة الذي أقام مدة طويلة بالبصرة، التقى بجماعة جامعة لمختلف أنواع العلوم هم على التوالي، أبو سليمان محمد بن معشر البيستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، والعوفي وغيرهم ونشأت صداقة عميقة بين زيد بن رفاعة وهذه الجماعة العلمية المتميزة " اجتمعت علي القدس، والطهارة، والنصيحة وتآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة"

ويحدثنا أبو حيان عن تلك اللحظة الحاسمة في حياة هذه الجماعة الصغيرة، والتي بفضلها دخلت معترك الفكر العربي الإسلامي، وأعني بها اتفاقهم على وضع مذهب:" زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى رضوان الله " والمصير إلى جنبه وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة اليونانية، والشريعة العربية فقد حصل الكمال"[33]، فغاية هذه الجماعة و هدفها هو استخدام الفلسفة اليونانية والمؤامة بينها وبين الشريعة الإسلامية ويبدو أن الضبابية والغموض الذي يلف هذا النص الصغير هو الذي أثار أسئلة كثيرة وجعل جمعية إخوان الصفاء في قفص الاتهام.[34]

أما الوسيلة المستخدمة لتبليغ رسائلهم ونشرها بين مختلف الشرائح الاجتماعية فهي تصنيف خمسين رسالة[35] في جميع أجزاء الفلسفة عليهما وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء. ذكر التوحيدي أن إخوان الصفاء ألفوا خمسين رسالة فقط، والرسائل التي وصلتنا وهي الآن بين أيدينا اثنتان وخمسون رسالة، ومن المحتمل أن التوحيدي أورد هذا الرقم ولم يتوخ الدقة، وذكره على سبيل التقريب، إما أن ما وصله من الرسائل لم يتجاوز الخمسين، وإما أن الإخوان في ذلك الوقت لم يرسلوا الرسالتين الأخيرتين إلى الورقين.[36]

وتنقسم هذه الرسائل إلى أربعة أقسام رئيسية حسبما ذكروا ذلك في رسائلهم وهي: قسم الرسائل التعليمية، والرياضية، والمنطقية (ويتكون من 14، أربع عشرة رسالة) قسم الرسائل الطبيعية بما فيها علم النفس (ويتكون

---

[32] أحمد أمين، المرجع السابق، ج، 1، ص، 366، وعن مدرسة البصرة في الزهد والتصوف، انظر كذلك علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، (ط8)، القاهرة، دار المعارف، د.ت،ج، 3، ص، 105

[33] ابن حيان، المصدر السابق، ج 2، ص، 163

[34] ن.م

[35] ابن حيان، المصدر السابق، ج،2، 163

[36] انظر، فرس السواح، طريق إخوان الصفاء، المدخل إلى الغنوصية الإسلامية، دمشق، دار علاء الدين، 2008 م، ص، 21

من 17 سبع عشرة رسالة) قسم الرسائل الماورائية (ويتكون من 10 عشر رسائل) قسم الرسائل الناموسية الإلهية والفلكية (ويتكون من 11 إحدى عشرة رسالة).[37]

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هنا، فعلى الرغم من هذا التقسيم المنهجي للرسائل وتوزيعه على أربعة أقسام لكل قسم منها موضوعه الخاص، وبكل رسالة فيه موضوعها أيضا، إلا أن الإخوان لم يتقيدوا بهذا التقسيم، فهم غالبا ما يبثون آراء لا علاقة لها بهذا القسم الخاص، فالخلط قائم، ولعلك تذهب إلى قسم بعينه، فلا تجده وإنما تجده في قسم مخالف، وهكذا[38]، كتب إخوان الصفاء رسائلهم بالعربية رغم أن بعض كتابها من فارس، لأن العربية أطوع في الصياغة، وأكثر مرونة في الاشتقاق[39]، وجاءت ألفاظ مبهمة وغامضة[40] في هذه الرسائل المثيرة، ورموز فالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والبعث، ويوم القيامة، ومحمد، وعلي وغير ذلك رموز إلى أشياء معنوية[41]. وفي معرض تقييمه لهذه الرسائل كتب المفكر الراحل زكي نجيب محمود إنها أي الرسائل تلخيص جيد أو خلاصة ما وصلت إليه معارف القوم في ذلك الحين[42]. ووردت إشارة لافتة ومثيرة في رواية أبي حيان عند كلامه عن مؤلفي هذه الرسائل فقال أنهم كتموا أسماءهم، بمعنى أن الرسائل نسبت إلى مجهول غير معروف الاسم والهوية، وهذه القضية شغلت المهتمين بهذه الرسائل وأثارت لغطا كثيرا، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل طرحت أسئلة كثيرة أخرى تتعلق باسم إخوان الصفاء، وخلان الوفاء الذي اختاروه لجماعتهم، وطرحت أسئلة أخرى حول المؤلف الحقيقي لهذه الرسائل، وغايات وأهداف إخوان الصفاء، فهل هم جماعة سياسية تعمل من أجل هدم خلافة بني العباس، وإقامة دولة خاصة بهم !؟ أم هم مجرد مفكرين يعملون من أجل إصلاح وضع المجتمع الإسلامي المتهالك في أيامهم؟

والأمر الآخر الذي حير الباحثين هو مذهب هذه الجماعة وعلاقتهم بمختلف المذاهب وعلى وجه الخصوص الإسماعلية؟ كل هذه الأسئلة وما تثيره من مشاكل لا أول لها ولا آخر، تجعل السير في هذه الطريق

---

[37] انظر، كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة، السيد يعقوب بكر، رمضان عبد التواب، (ط3)، القاهرة، د.ت، ج،4، ص، 156 السيد محمد الشاهد، إخوان الصفاء، الموسوعة الإسلامية العامة، القاهرة، 1424هـ، 2003م، ص، 82، انظر كذلك زكي نجيب محمود، المعقول واللامعقول، (ط 3)، القاهرة، دار الشروق، 1401 هـ، 1981 م، ص، 177

[38] انظر، فرس السواح، المرجع السابق، ص، 24

[39] أحمد أمين، المرجع السابق، ج، 1، ص، 379، عن موقف إخوان الصفاء من اللغة العربية، انظر:

La Philosophie Du Langage Chez Les Ikwane Al S afa, Annuaires De L'école Pratique Des Hautes E t u des , Annee 1991, 100 , P , 292 LPierre L orry ,

[40] انظر، عادل العوا، المرجع السابق، ص، 44

[41] أحمد أمين، المرجع السابق، ج، 1، ص، 370

[42] انظر المرجع السابق، ص، 176

غير مأمون ومحفوف بالأخطار، ولا محيد عن الخطأ والسقوط لأن الباحث تعوزه النصوص القديمة التي يمكن مساءلتها واستنطاقها، وبدلا من ذلك يلجأ إلى مجرد التخمين والظن وافتراض أمور قد تجانب الصواب. كما أن طبيعة المقال، وحيزه الضيق لا يسمح بالخوض في موضوع متشعب، والغوص العميق في هذا البحر المتلاطم الأمواج.

والجدير بالذكر أن الدارسين من مختلف الآفاق والمشارب جذبتهم هذه الجمعية المتسمة بالغموض، وطرافة التجربة، وطبيعة التفكير، فكتبوا أبحاثا، وكتبا ذهبوا فيها مذاهب شتى، تقترب أحيانا من التناقض والتصادم، وسأستخدم النتائج التي توصل إليها الباحثون وأستفيد منها في هذا المقال، وكل من يريد دراسة هذا الموضوع وكل ما يثيره من مسائل وإشكالات عليه بالعودة إلى هذه الأبحاث. يقول القفطي، ت646هـ/1248م (ولما كتم مصنفوها أسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها، فكل قوم قالوا قولا بطريق الحدس، والتخمين، فقوم قالوا هي من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، واختلفوا في اسم الإمام الواضع لها اختلافا لا يثبت له حقيقة، وقال آخرون هي تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الأول)[43] ونستشف من هذا النص أن الخلاف قديم، فكل جيل من الأجيال القديمة ممن قرأ رسائل إخوان الصفاء، تساءل عن كاتب، أو بالأحرى عن كتابها وأعياه البحث وألقي به تخمينه وحدسه في كل واد، وفي عصرنا هذا تكرر الخلاف القديم الذي وقف عليه القفطي، بين الباحثين المعاصرين هذا ويبدو أن محاولة بعض الباحثين نسبة هذه الرسائل إلى الأشخاص الذين تحدث عنهم أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة، قد فشلت فشلا ذريعا، ويعود السبب في ذلك إلى أن المصادر لم تؤكد أو حتي تشير مجرد إشارة إلى هؤلاء الذين ذكرهم أبو حيان التو حيدي[44] وذهب فريق من الباحثين إلى أن مؤلف الرسائل هو أحد أئمة الشيعة الإسماعلية، وهو الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، بدعوى الدفاع عن الشريعة الإسلامية، والرد على الخليفة العباسي المأمون، الذي كان يدعو إلى نشر الفلسفة اليونانية[45]. وهذا تعليل ضعيف لأن الرسائل واضحة في دعوتها الصريحة إلى تبني الفلسفة اليونانية[46]، والإمام أحمد بن عبد الله، المذكور ولد في السنة التي تولى فيها المأمون الخلافة 198هـ/813م، وحل محل والده في مركز الإمامة عام 212هـ/827م وله من العمر أربعة عشر عاما وتوفي

---

[43] انظر، القفطي، الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط1، علق عليه ووضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1426هـ، 2005م، ص،64

[44] انظر، فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص،55 وما بعدها

[45] انظر، المقدمة التي كتبها محقق رسالة جامعة الجامعة، عارف تامر، ط2، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د. ت، ص، 13

[46] انظر، مصطفى التواتي، المرجع السابق، ج، 2، ص، 254

المأمون، سنة 218هـ/832 م فهل يعقل أن صبيا في هذا العمر الصغير يستطيع إنجاز هذا العمل الفكري الضخم والمتنوع لأن هذه الرسائل الزاخرة بمختلف المعارف والعلوم؟ ومن المفروض أنه كتبها في وقت قصير ليقطع على المأمون الطريق الذي سلكه[47] ورغم كل هذه الحجج الدامغة فإن الباحث عارف تامر، يصر على نسبة هذه الرسائل إلى الإسماعلية: «رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء تمثل الأفكار الإسماعلية تمام التمثيل وأنها لا جدال من وضع دعاة الإسماعيليين الذين ذكرنا أسماءهم. وبعد هذا البيان لم يبق أية قيمة تاريخية أو علمية لما ذكره أبو حيان التوحيدي، عن زيد بن رفاعة، والبستي، والمقدسي، والزنجاني، والمهرجاني، والعوفي».[48]

غير أن المستشرق هنري كربان ينسب من جهته رسالة واحدة وهي الرسالة الثانية والخمسين، المعروفة بالرسالة الجامعة، لثاني الأئمة الثلاثة المستورين من أئمة الإسماعلية وهو محمد بن إسماعيل الذي تنسب إليه الإسماعلية[49] ومن الأسماء العلمية الأندلسية المطروحة أبو القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي*، وتلميذه الكرماني** يقول أحمد زكي أنه قرأ في كتاب جلاء العينين في محاكمة الأحمديين تأليف السيد نعمان خير الدين الشهير بابن الآلوسي البغدادي المطبوع ببولاق سنة 1298هـ كلاما عن هذه الرسائل[50] ....وفي فتاوي الشيخ ابن حجر، ما نصه «نسبها كثير إلى جعفر الصادق وهو باطل وإنما الصواب أن مؤلفها مسلمة بن قاسم الأندلسي، كان جامعا لعلوم الحكمة من الإلهيات والطبيعيات والهندسة والتنجيم وعلوم الكيمياء وغيرها وإليه انتهى علم الحكمة بالأندلس»[51] أما الطيباوي فنسبها إلى تلميذه الكرماني القرطبي، ولكن لا مؤشر

---

[47] انظرن فؤاد معصوم، المرجع السابق، 50

[48] انظر مقدمة، جامعة الجامعة، ص، 17

[49] انظر، هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية منذ الينابيع حتى وفاة ابن رشد، ترجمة نصير مروة، بيروت، دار عويدات للنشر والطباعة، ص، 213

* المجريطي أبو القاسم مسلمة فيلسوف، رياضي، فلكي، طبيب، ولد في مجريط، عام ثمانية وثلاثين وثلاثمائة أخذ عن جلة علماء الأندلس، ولا سيما عن أبي أيوب عبد الغافر بن محمد. اشتهر في صناعة الطب، وكان مقدما في الرياضيات، والفلك توفي سنة 398 هـ، انظر، صاعد (القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي) طبقات الأمم، نشره الأب شيخو اليسوعي، بيروت، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، 1912، ص 66، وكذلك، انظر، يوسف فرحات، ويوسف عيد، معجم الحضارة الأندلسية، (ط1)، بيروت، دار الفكر العربي، 2000، ص، 267

** الكرماني أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمان من أهل قرطبة، أحد الراسخين في علم العدد، والهندسة، رحل إلى المشرق ثم رجع إلى الأندلس مستوطنا سرقسطة، توفي سنة 458 هـ، 1066 م، انظر، صاعد، المصدر السابق، ص ص، 70، 71

[50] انظر، أحمد زكي، موسوعات العلوم العربية، وبحث على رسائل إخوان الصفاء، (ط1)، بولاق، المطبعة الأميرية، 1308هـ، ص، 81

[51] المرجع نفسه، ص ص، 81، 82

واحد يدل على أن هذين الأندلسيين هما من كتبا الرسائل[52]، صاعد الأندلسي، ذكر فقط أن الكرماني كان أول من أدخل رسائل إخوان الصفاء إلى الأندلس[53] ولكنه لم يحد د تاريخا معينا تم فيه إدخال الرسائل إلى الأندلس، وحتى بعض الباحثين الإسبان المعاصرين لم يذكروا تاريخا بعينه[54] وسبب نسبة كتابة الرسائل إلى المجريطي فتعود إلى انه حمل معه الرسالة الجامعة من رسائل الإخوان، من المشرق وأملاها على طلبته في الأندلس، فزعموا أنه هو من قام بتصنيفها [55]. وفي هذا الصدد يقول الدسوقي، أنه وقف على رسائل المجريطي، في نسختين بدار الكتب المصرية، وبعد دراستها خرج بما يلي: «إن رسائل المجريطي، محاضرات، وتلخيص، وشرح، وتعليق، على رسائل إخوان الصفاء المشهورة أملاها على تلاميذه بالأندلس بعد أن درس رسائل إخوان الصفاء دراسة جيدة، وفهمها فهما تاما»[56]، وهذا يؤكد أن المجريطي هو أول من أدخل رسائل إخوان الصفاء، إلى الأندلس وليس الكرماني لأنه من أبناء القرن الرابع الهجري كما مر بنا في الترجمة الصغيرة المخصصة له في الهامش، ففيه عاش ومات .وإخوان الصفاء عاشوا في هذا القرن، ومن المحتمل كما يقول الدسوقي، أن المجريطي، اتصل بهم عقب رحلته إلى المشرق، وعاد إلى الأندلس حاملا الرسائل معه[57]، ومن جهته يؤكد كارل بروكلمان أن المجريطي هو أول من أدخل الرسائل عند عودته من رحلته الدراسية بالمشرق إلى الأندلس.[58]

وإسماعيل محمود، يذهب دون تقديم أي دليل إلى أن المجريطي، كان يتزعم فرع إخوان الصفاء بالأندلس[59]، وتشير أبحاث نشرها باحثون غربيون مؤخرا إلى أن إخوان الصفاء أثروا في المفكر الأندلسي المثير

---

[52] انظر، عادل العوا، المرجع السابق، ص ص، 73، 74

[53] انظر صاعد، المرجع السابق، ص، 71، انظر كذلك المقري، (أحمد بن محمد المقري) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بيروت، دار صادر، د. ت، مج، 3، ص، 376

[54] انظر أنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص، 455

[55] انظر، حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، (ط2)، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، 2002، مج، 3، ص، 272

[56] انظر، عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 54 وما بعدها.

[57] عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص ص، 55، 56

[58] انظر، المرجع السابق، ج، 4، ص، 156

[59] محمود إسماعيل، نهاية أسطورة نظريات ابن خلدون مقتبسة من رسائل إخوان الصفاء، القاهرة، دار قباء، 2000 ص، 23

للجدل محمد بن مسرة، ت 319هـ/931م في عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر، ولا حظوا تشابها بين فكره وفكر الإخوان، ومن الجائز أنه اطلع على رسائلهم عندما كان بالمشرق.[60]

أما عن اسم إخوان الصفاء، وخلان الوفاء، فهو يدل على الصداقة النقية الخالصة التي لا تشوبها شائبة من أغراض الدنيا الزائلة[61]، وهذا اللفظ كان شائعا في لغة العرب منذ الجاهلية بدليل وروده في أشعار الجاهليين، كأوس بن حجر، والخنساء، ووردت كذلك في أشعار ابن الرومي، وصريع الغواني[62]، ووردت صيغة الاسم في كتاب كليلة ودمنة في باب الحمامة المطوقة[63]، ووردت في الرسائل فاعتبر بحديث الحمامة المطوقة، المذكورة في كتاب كليلة ودمنة[64]. وحدث جدل كبير حول الزمن الذي ظهرت فيه جماعة إخوان الصفاء، محمود إسماعيل يزعم أنها تأسست مع بداية العصر العباسي الثاني في عهد المتوكل، على وجه التحديد 232هـ/ 869م[65]، على اعتبار أن فكرة التأسيس حسب رأيه جاءت كرد فعل على تردي أحوال الخلافة العباسية تحت سيطرة العسكر التركي[66]. وهذا التاريخ لا يتفق عليه أغلب الباحثين، الذين يميلون إلى تاريخ آ خر، هو سنة 334هـ/945 م الذي تم فيه سيطرة بني بويه على بغداد كما تقدم[67]. والسبب في ذلك أن البويهيين خلقوا لأجواء والظروف المناسبة لظهور الاتجاهات الشيعية أو المتعاطفة معه[68] ويتفق المستشرق دى بوير مع هذا الراي، فهو يصرح بان استيلاء بني بويه على السلطة في بغداد كان مناسبا لظهور دائرة معارف تجمع بين مذاهب

---

[60] انظر، Annuaire De Le cole Pratique Des H autes E tu des ,Section Des S ciences , Religieuses , E n L igne Go de froid Deca llatay, Rassil lkh wane Al Safa Sarah Stroumsa , Influences C hiites Dans Les Pensées Musulmanes Et J uive Dal Andalus , Année 2003 ,112 ,P ,197

عن فكر ابن مسرة، انظر، محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب والأندلس، (ط 1) بيروت، دار الجيل، 1417هـ، 1997، ص، 274

[61] انظر، سليم الجندي، أبو العلاء المعري وإخوان الصفاء، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، العدد الثامن، أغسطس، 1941، ص، 346

[62] سليم الجندي ، المرجع السابق ، ص،346

[63] انظر، بيدبا الهندي، كليلة ودمنة، ترجمة عبد الله بن المقفع، بيروت، دار الكتاب العربي، 1425 هـ، 2005 م، ص، 112

[64] انظر، عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 42

[65] محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص، 22

[66] ن.م

[67] انظر، عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 69

[68] انظر، فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 60

الشيعة، والمعتزلة، وبين ثمرات الفلسفة وتؤلف منها جميعا مذهبا يناسب العامة[69]، وفي هذا الاتجاه يذهب الدسوقي أيضا الذي ذكر أننا لم نسمع بإخوان الصفاء ورسائلهم قبل سنة 334هـ، ويظهر أنهم تشجعوا بمجيء آل بويه، وأظهروا من أمرهم ما كان خافيا[70]، ومن القدماء قال ابن تيمية أنهم ظهروا في دولة بني بويه[71].

ويذهب الباحث الإيراني فرهاد دفتري، المتخصص في الإسماعلية إلى أن الرسائل ألفت في البصرة في منتصف القرن العاشر الميلادي في الفترة التي غزا فيها الفاطميون مصر تقريبا[72] ونفس الاتجاه يذهب إليه الباحث Pierre Lory بيار لوري، انتهت كتابة الرسائل في النصف الثاني من القرن العاشر، وامتدت الكتابة عبر أجيال حسبما قال[73].ويستدل أحد الباحثين على أن إخوان الصفاء ظهروا في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، بناء على رواية رواها أحد الأندلسيين الذي حل ببغداد، سنة 390هـ/1000م الذي حضر مناظرات علمية شارك فيها مسلمون من جميع الفرق، وبين أهل السنة، والمبتدعة والفرس، والملاحدة، واليهود، والنصارى، على اختلاف مشاربهم، ومن الجائز أن هذه المناقشات الحرة كان يشرف عليها إخوان الصفاء[74].

أما عن زمن تأليف الرسائل فمن المرجح أنها ألفت ما بين سنة 334-373هـ/928-984م تقريبا[75]، وأحمد زكي يستند على رواية أبو حيان التوحيدي، التي ذكر فيها السؤال الذي وجهه إليه وزير صمصام الدولة المتعلق بزيد بن رفاعة، وكذلك سأله عن رسائل إخوان الصفاء، استنتج أن الرسائل كانت موجودة في سنة 373هـ كما يتضح من كلام أبي حيان[76]. ومن الباحثين من يحدد بدء تأليف رسائل إخوان الصفاء في أوائل القرن الرابع مع قيام الدولة الفاطمية في المغرب سنة 296هـ/909 م[77]، والجماعة كانوا معروفين بمذهبهم، ورسائلهم قبل اختفاء الحاكم بأمر الله 411هـ/1021م بنحو جيل من الدهر.[78]

---

[69] انظر، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، دار النهضة العربية، د.ت، ص، 136

[70] انظر، عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 68

[71] انظر، ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني) مجموع الفتاوى، نشر، عامر الجزار، أنوار البار، (ط 3)، 1426 هـ، 2005، مج، ص، 51

[72] انظر، المرجع السابق، ص، 390

[73] OP CIT, P 297

[74] عادل العوا، المرجع السابق، ص، 59

[75] عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 68

[76] انظر، أحمد زكي، المرجع السابق، ص، 92

[77] انظر، عمر فروخ، إخوان الصفاء، (ط2)، بيروت، منشورات، مكتبة ميمنه، 1372 هـ، 1953 م، ص ص، 19، 20

[78] ن.م

أما عن علاقة الإخوان، بالإسماعلية فهناك على الأقل أربعة اتجاهات اتجاه يري أن هناك تشابها بين الفكر الإسماعيلي وبين فكر إخوان الصفاء، ولكنه لا يجزم في أسبقية التأثير، هل تأثر الإسماعلية بالإخوان؟ أم أثرت الإسماعلية في الإخوان؟[79] والاتجاه الثاني يذهب إلى أن آراء الإسماعلية توجد كلها في رسائل إخوان الصفاء[80]. ولا شك أن رسائل إخوان الصفاء هي إسماعلية، سواء وضعها الإمام أحمد نفسه، أم وضعها أتباعه تسودها الاصطلاحات الإسماعلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية.[81]

أما الاتجاه الثالث فيؤكد أن لا علاقة للإسماعلية بفكر إخوان الصفاء، وحجته أن فكرة الإمامة هي حجر الرحي في الفكر الشيعي بصفة عامة، والفكر الإسماعيلي خاصة، وهي مستبعدة في رسائل إخوان الصفاء، بل يرسلون أقوالا تسير في اتجاه معاكس للإمامة ومن ذلك ما صرحوا به في الرسالة رقم 47 «واعلم أن العقلاء الأخيار إذا انضاف إلى عقولهم القوة بواضع الشريعة، فليس يحتاجون إلى رئيس يرأسهم ويأمرهم وينهاهم ويزجرهم، ويحكم عليهم لأن العقل والقدرة لواضع الناموس يقومان مقام الرئيس الإمام[82]» وهناك نص واضح لا لبس فيه يدل على أن إخوان الصفاء لا ينتسبون إلى الإسماعلية : «فإذا تأملت في أمور الدنيا وجدتها كدار ملئت أجناس حيوانات تعادي بعضها بعضا عداوة طبيعية مركوزة في الجبلة، كعداوة البوم والغربان، وعداوة الكلب والسنانير، وكما يفعل الملوك والسلاطين بمن هم دونهم إذا غلبوا عليهم، وأخذوا أموالهم .... وكذلك أهل الشرائع المختلفة يقتل بعضهم بعضا، كما يفعل النواصب والروافض، والجبرية والقدرية، والخوارج والأشاعرة وغير ذلك»[83] بل هاجموا عقيدة الإمامة من يعتقد أن إمامه مختف، فعقيدته فاسدة.[84]

وعن التشابه القائم بين فكر الإخوان، وفكر الإسماعلية، فمرده حسب فرس السواح إلى تأثر الإسماعلية على وجه الخصوص فلاسفتها المتأخرين بفكر الإخوان وليس العكس[85]، في حين يرد باحث آخر أوجه الشبه هذه في كثير من الآراء الفلسفية بسبب تغلغل الأفلاطونية المحدثة في التفكير الفلسفي الإسلامي في تلك العصور[86] أما الاتجاه الرابع والأخير فيصر ويؤكد على عدم انتماء إخوان الصفاء، إلى أي من المذاهب

---

[79] انظر، المرجع نفسه، ص، 3

[80] عارف تامر، المرجع السابق، ص، 10

[81] انظر، سامي النشار، المرجع السابق، 2، ص، 290

[82] انظر، فرس السواح، المرجع السابق، ص، 20

[83] فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 285

[84] عمر فروخ، المرجع السابق، ص، 19

[85] انظر، فراس السواح، المرجع السابق، ص، 20

[86] انظر فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 291

والفرق الإسلامية المعروفة[87] أو المدارس الفلسفية اليونانية، أو إلى إحدى المدارس الفكرية السابقة عليهم أو المعاصرة لهم، إلا أنهم أخذوا من أغلب تلك المدارس والفرق ما اعتقدوه صوابا ويتفق وتصورهم[88] .كان مذهب إخوان الصفاء، فلسفيا روحانيا، لم يكن لهم صلة بالدين، إذا قسنا الدين بالمقاييس التي نتداولها، فهم ليسوا شيعة كالشريف الرضي، ولا كأهل الجماعة والسنة مثل أبي حامد الغزالي، ولا مسلمين كالإمام الشيخ محمد عبده[89] ولهم نص هام يكشف عن طبيعة فكرهم ونهجهم «ينبغي لإخواننا أيدهم الله تعالى أن لا يعادوا علما من العلوم، أو يهجروا كتابا من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم كلها».[90]

ولعل هذه المقولة الأخيرة هي التي دفعت أحد الباحثين إلى هذا الاستنتاج «في وسعنا القول إن إخوان الصفاء علويون، وباطنيون، وإسماعيليون، ومعتزلة، وفيثاغوريون، وأفلا طينيون، ومجوس»[91] ونسبهم ابن تيمية إلى الصابئة المتفلسفة المتحنفة[92]، أو هم أتباع فيتاغورس، كما قال أبو حامد الغزالي[93] وينص النشار على أن فلسفة هذه الرسائل ليست فلسفة إسلامية أصيلة...إنها بلا شك محاولة فلسفية منسقة ولكنها بعيدة عن الروح الإسلامي وليست فيها أصالة ولا جدة[94] لكن هناك من قرأ بعض رسائلهم ووجد فيها مشروعا سياسيا قائما بحد ذاته يسعى الإخوان سعيا جادا لتجسيده على أرض الواقع أطلقوا عليه دولة أهل الخير، كما يتضح من النص، التالي: «واعلم أن الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان، ودور وقران من أمة إلى أمة، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، ومن أهل بلد إلى أهل بلد.

واعلموا أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من أقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد، ويتفقون على رأي واحد، ودين واحد، ومذهب واحد، ويعقدون بينهم عهدا وميثاقا بانهم يتناصرون، ولا يتخاذلون، ويتعاونون، ولا يتعاقدون عن نصرة بعضهم بعضا، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم»[95] وواضح من هذه الفقرة أن هدف إخوان الصفاء هو تهديم دولة تفسخت وانحلت عراها وقطع فيها الفساد أشواطا كثيرة،

---

[87] انظر، محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص، 23

[88] انظر، فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 295

[89] انظر، عمر فروخ، المرجع السابق، ص، 17

[90] انظر فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 295

[91] انظر، عادل العوا، المرجع السابق، ص، 71

[92] انظر، ابن تيمية، المصدر السابق، مج، 4، ص، 51

[93] انظر، المنقذ من الضلال، تحقيق، جميل صليبا، كامل عياد، بيروت، دار الأندلس، ص، 93

[94] انظر علي سامي النشار، المرجع السابق، ج، 2، ص، 292

[95] انظر، عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 82

وصارت وكأنها منتهية الصلاحية كما نقول بالتعبير الشائع هذه الأيام، ولا بد من بعث دولة جديدة يتحقق فيها العدل والنظام أطلقوا عليها تسمية دولة الخير[96]، وهذا ما ذهب إليه طه حسين« قوام جماعتهم فيما يظهر سياسي وعقلي فهم يريدون قلب النظام السياسي المسيطر على العالم الإسلامي»[97] والجمعية السرية التي أسسها الإخوان ماهي في حقيقة أمرها إلا الوسيلة المثلى لتحقيق هذه الغاية، وتكلم حشد من الباحثين عن أمر هذه الجمعية السرية، وإليك بعضها: «لقد شكل إخوان الصفاء جمعية سرية حقيقية على نحو ما توضح، ولكن ليس دون حيطة وعلى نحو رمزي أيضا[98]» «كان لجماعة إخوان الصفاء مركزها في البصرة ومراكز أخرى لعقد جلساتها في جميع المدن التي كان يتوفر فيها عدد كاف من الأتباع».[99]

ويبدو أن سعي الجماعة لضم أعضاء جدد لم يتوقف، والمهمة تستمر بعد التحاق هؤلاء فلابد من تنظيمهم وتهيئتهم خاصة أنهم ينحدرون من مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية[100] وفضلوا الشباب لعلمهم أنهم أقرب لقبول الدعوة والتجاوب معها أكثر من الشيوخ.[101]

ويظهرانهم حققوا نجاحا لافتا في هذا المضمار، «إن لنا إخوانا وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم متفرقين في البلاد، فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والعمال والكتاب ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس وقد ندبنا لكل طائفة احد إخواننا ممن ارتضيناه في بصيرته ومعارفه لينوب عنا في خدمتهم بإلقاء النصيحة إليهم بالرفق والرحمة والشفقة عليهم»[102] ويظهر أن حكومتهم المرتقبة تشبه الحكومة التي دعا إليها أفلاطون فيما مضى، من تولية الفلاسفة، فهم عقلاء الأمة، ويجب أن يكونوا حكامها[103]، لكن كارل بروكلمان يشك في كل هذا، «ومن المشكوك فيه كثيرا أن هذه الجماعة استطاعت فعلا تكوين الجماعة المتماسكة التي تدعو إليها رسالتهم الخامسة والأربعون وأدعى من هذا إلى الشك أن نشاطهم اتسع متجاوزا البصرة».[104]

إخوان الصفاء والحرف:

---

[96] عمر الدسوقي، المرجع السابق، ص، 82

[97] انظر، عادل العوا، المرجع السابق، ص، 56

[98] ن.م

[99] ن.م

[100] انظر، فؤاد معصوم، المرجع السابق، ص، 77

[101] انظر أحمد أمين، المرجع السابق، ج، 1، ص، 369

[102]، المرجع نفسه، ج، 1، ص، 379

[103] انظر، المرجع نفسه، ج، 1، ص، 373

[104] انظر المرجع السابق، ج، 4، ص، 155

الناس أنواع تتحكم فيهم طباعهم وميولهم ومواهبهم، صنف قوي وأشتد فيه الجانب العقلي فهو أميل إلى دراسة العلم، والدراسة في الجامعات له أحوج وأنفع[105]، ونوع اعتمد على العاطفة والذوق فهو إلى دراسة الفنون الجميلة من موسيقى وتصوير وأدب وشعر أنسب[106]، والفئة الثالثة والأخيرة مقدرتهم في أيديهم وهؤلاء للحرف والصناعات أنسب[107]ونحن إلى هذه الفئة أقرب وسنتابع من الآن فصاعدا ماذا ورد عن الحرفيين وأهل الصناعات في رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء.

[105] أنظر أحمد أمين، المرجع السابق، ج،1، ص، 309

[106] ن.م

[107] ن.م

تعريف مصطلح الحرفة والحرفي:

الحرفة في اللغة اسم من الاحتراف وهو الاكتساب، يقال هو يحرف لعياله ويحترف، بمعنى يكتسب من هاهنا وهاهنا[108].

جاء في تاج العروس: الحرفة بالكسر الطعمة والصناعة التي يرتزق منها، وهي جهة الكسب، ومنها ما يروى عن علي رضي الله عنه قوله "إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول هل له حرفة فإن قالوا: لا سقط من عيني" وهي كل ما اشتغل الإنسان به ورضي به، أي أمر كان فإنه عند العرب يسمى صنعة وحرفة.... يقولون فلان أن يعمل كذا وحرفة فلان أن يفعل كذا يريدون دأبه ودينه لأنه ينحرف إليها أي يميل[109].

وورد في المعجم الوسيط، الحرفة وسيلة الكسب من زراعة وصناعة وتجارة وغيرها، يقال حرفته أن يفعل كذا: دابه وديدنه [110]

الحرفي: الشخص الذي يكسب عيشه بالعمل في حرفة بصفة مستمرة ومنتظمة[111].

أما من الناحية الاصطلاحية، فإن كلمة الحرفة المفردة أو المركبة التي تستخدم للدلالة على كل عمل يكتسب منه الإنسان رزقه ويقوم به بصورة منتظمة ومستمرة. ومصطلح الحرفي فهو الكلمة المفردة أو المركبة التي تستخدم للدلالة على كل من يكسب رزقه بالعمل في حرفة ما بصورة منتظمة ومستمرة [112]

تعريف الصناعة

لغة: صنعت الشيء، أصنعه صنعا وصنعا، والصانع عامل الشيء، والصناعة حرفته، وجمع صانع صناع.[113]

---

[108] انظر، جهاد غالب مصطفى الزغلول، الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، رسالة ماجيستر في التاريخ بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية، تحت إشراف، محمد عبده حنامله، كانون الثاني، 1994، ص،13

[109] انظر، الزبيدي، (محب الدين أبي الفيض السيد مرتضى الحسيني الواسطي) تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة القاهرة، 1306، مج، 6، ص، 69، انظر، هدي محمدي السيد عبد الفتاح، معجم مصطلحات الحرف والفنون في كتاب تخريج الدلالات السمعية للخزاعي ت 787 هـ، (ط1) المنوفية، بلنسية للنشر والتوزيع، 1429هـ، 2008، ص ص، 42، 43

[110] انظر، إبراهيم مصطفى أحمد حسن الزيات، المعجم الوسيط، إسطنبول، 1410هـ، 1989، ص، 168

[111] ن.م

[112] هدي محمدي السيد عبد الفتاح، المرجع السابق، ص، 46

[113] انظر، الخزاعي (علي بن محمد بن مسعود) تخريج الدلالات السمعية، تحقيق، إحسان عباس، (ط1) بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1405هـ، 1985، ص، 776

اصطلاحا: «بالكسر الحرفة، وعلى هذا قيل الصناعة في عرف العامة هي العلم الحاصل بمزاولة العمل كالخياطة والحياكة والحجامة ونحوها مما يتوقف حصولها على المزاولة والممارسة»[114] وللصناعة معنى آخر: «ثم الصناعة في عرف الخاصة هي العلم المتعلق بكيفية العمل ويكون المقصود منه ذلك عمل سواء حصل بمزاولة العمل كالخياطة ونحوا أو كعلم الفقه والمنطق والنحو والحكمة العملية ونحوها مما لا حاجة فيه غلى حصوله إلى مزاولة الأعمال. وقد يقال كل علم مارسه الرجل حتى صار كالحرفة له يسمى صناعة له».[115]

عالجت الرسائل موضوع الحرف والصنائع من وجهة نظر فلسفية، واجتماعية، ولم تخل كالعادة من الرموز وتأثير الكواكب، والطلاسم التي دسها إخوان الصفاء في رسائلهم، في مختلف مواضيعهم وميزت بين الحرف العلمية والعملية وقد تقدم القول فيها في التعريف الاصطلاحي، وفي ما يلي أقدم أهم ما جاء في الرسائل عن هذا الموضوع الحساس لما له من تأثير على مستوى العمران، والاجتماع والاقتصاد:

الصنائع ومستلزماتها:

الصانع يخرج الصورة ويضعها في الهيولي، وهو شيء تظهر فيه صور الأشياء، على حسب تعريف بعض العارفين، أي الصورة التي تتجسد فيها، ماهيات الأشياء كما يقول الفلاسفة، وحقائق الأشياء كما يقول المتكلمون، والأعيان الثابتة كما يقول المتصوفة، انظر، التعريف في الهامش، والمصنوعات أربعة أجناس، بشرية، وطبيعية، ونفسانية، وإلهية، ويبدو أن البشرية أي التي يصنعها الناس من أهل الحرف، تظهر في أسواق المدن ومحلات البيع كأشكال، ونقوش، وأصباغ، ولكن الإخوان لا يشيرون إلى أشكال الصنعة عند بقية الأجناس الثلاثة ويتحدث إخوان الصفاء عن الأشياء التي تتم بها الصنعة، وهي: ستة أشياء مختلفة، أما الصانع فترتيبه السابع، وهو بطبعه ليس شيئا لذلك تم تميزه عن الأشياء الستة.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد فهو يحتاج إلى سبع حركات، وسبع جهات، لا يفسر إخوان الصفاء، ما المقصود بسبع حركات، وسبع جهات، ويذهب النشار إلى أن الأمر يتعلق بالمذهب السبعي، ونسبه إلى فرقة السبعية ولم يحدد بشكل واضح علاقة إخوان الصفاء بهذه الفرقة[116]، وينقل النشار نصا من كتاب اعتقادات فرق

---

[114] التهانوي، (محمد علي) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ترجمة من الفارسية إلى العربية، عبد الله الخالدي، تحقيق على بحروج، بيروت، مكتبة لبنان، ج،2، ص،1097

[115] ن.م

[116] انظر، علي سامي النشار، المرجع السابق، ج، 2، ص، 287

المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازي يشرح فيه السبعية: «الدور التام سبعة، بدليل أن السماوات والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبع والأعضاء سبع، وغير ذلك. [117]

يذكر إخوان الصفاء فقط ستة أشياء، هي الهيولي، والمكان، والزمان، والأداة، والآلة، والحركة، أما السابع فالمقصود به الصانع الذي يسميه الإخوان النفس، بمعنى النفس الكامنة في الصانع، وهي مختلفة بالفعل كما تبدو لنا في الطبيعة والمجتمع وفي أذهاننا، فصور الأشياء تختلف في الهيولي لأنها مختلفة في الواقع، وبالتالي فحقيقتها التي يعكسها الهيولي ليست واحدة بل مختلفة بين صورة وأخرى، والمكان مختلف في أشكاله وحيزه، بين السعة والضيق، والطول، والعرض.

وكذلك الزمان أي الزمن الطويل والقصير، والأقصر، الألة، والأداة التي سيشرحها الإخوان بعد قليل تختلف في شكلها وحجمها وقيمتها وأهميتها وما ينطبق على الأداة ينطبق كذلك على الألة التي سيبين الإخوان حقيقتها بعد قليل والحركة التي يقوم بها الصانع أثناء تأدية عمله في ورشته تختلف حسب اختلاف المهن بحسب وضعية الأداة والألة، والنفوس مختلفة فهناك النفس الخيرة، والنفس الشريرة، وغير ذلك ولو عدنا إلى الواقع لتأكدنا أن ما كتبه إخوان الصفاء فيما يخص الأشياء الستة قريب جدا من الصحة ذلك أن الأمكنة التي كان يزاول المهني مهنته فيها تختلف بين مكان وآخر، والزمن الذي كان ينجز فيه صنعته مختلف فمنهم من يتم عمله في وقت قصير، وغيره يستغرق وقتا أطول ونفس الملاحظة تنطبق على الألة والأداة، والحركة والنفس.

المادة الأولية المستعملة في الصنائع:

ويتطرق الإخوان إلى المادة الأولية المستعملة في الصنائع والمهن، وأكدوا أن الصانع كان يحتاج إلى نوعين من المواد بسيط ومركب البسيط مثل النار والهواء والماء والأرض، والمركب يحتاج إلى الأجسام المعدنية، والأجسام النباتية، والأجسام الحيوانية، ويذكر إخوان الصفاء، أن الحرفيين يحتاجون إلى أداة وأدوات، وآلة وآلات يستخدمها في صناعته، والمقصود بالألة هي العضو البشري المستعمل في الصناعة كاليد، والأرجل والأصابع والعين، أما الأداة فهي تلك التي يستعملها أيضا كالفأس والمنشار والإبرة ومعنى هذا إن أردنا التفسير أن الصانع يحتاج إلى وسيلتين تساعدانه في أداء أشغاله: واحدة نابعة من داخله أو بعبارة أوضح من أعضاء جسده كالخياط مثلا الذي يستعمل يده وعينه وقوة بصره تسهل شغله و ضعف البصر يصعب مهمته أو يجعلها مستحيلة.

---

[117] علي سامي النشار، المرجع السابق، ج،2، ص، 287

أما الأدوات وهي الوسيلة الفعالة الثانية المنوط بها إنجاز متطلبات الحرف فهي مختلفة الأشكال والهيئات، وهذه تجعل أفعاله وحركاته مختلفة ومثال ذلك أن النجار بالفأس ينحت، وحركته تتحه من فوق إلى أسفل، وبالمنشار ينشر وحركته من قدام إلى خلف وبالمثقب وحركته قوسية، يمنة ويسرة وحركة مثقبه دورية[118] ولابد للصانع من تحريك عضو من أعضائه أو عدة أعضاء كاليد، والرجل، والظهر، والكتف، والركبة[119].

ويقدم إخوان الصفاء قائمة بأسماء الحرف والصنائع والمواد الأولية المستعملة فيها، فالماء يدخل في صناعة الملاحين، والسقائين، والروائيين*، والشرابين، والسباحين.[120]

ومنها ما تحتاج إلى التراب كحرفة حفار الآبار والأنهار، والقنى، والقبور، والمعادن، وكل من ينقل التراب ويقلع الحجارة ومنها ما يحتاج إلى النار كحرفة النفاطين* والوقادين، والمشعلين[121]. ومنها ما تحتاج إلى الهواء كصناعة الزمارين، والبواقين، والنفاخين، ومنها ما يحتاج إلى الماء والتراب كصناعة الفخارين والغضارين**، والقدوريين، وضرابي اللبن المستخرج من الطين للبناء.[122]

ومنها ما يعتمد على المعادن، كصناعة الحدادين، والصافارين، والرصاصين، والزجاجين، ويعتمد النجارون والخواصون*** والبوارون**** على القضبان، والأوراق، ومن الصناعات ما يعتمد على لحاء الأشجار كصناعة الكتانين والكاغد، ومنها ثمر الأشجار وحب النبات كصناعة الدقاقين*[123].

والعصارون الذين يعصرون العنب والرزازون والشيرجون***** والعامة تقول سيرج[124]، والحيوان كذلك يدخل كمادة في بعض المهن كمهنة الصيادين، ورعاة الغنم والبقر، وساسة الدواب، والبياطرة، وأصحاب

---

[118] رسائل إخوان الصفاء، ج، 1، ص، 272

[119] المصدر نفسه، ج، 1، ص،280

* الروائيون، حملة الماء

[120] رسائل إخوان الصفاء، ج1، ص،280

** النفاطون: الذين يرمون النفط مشتعلا في الحروب، والذين يستخرجونه من النفطات

[121] انظر، رسائل إخوان الصفاء، ج، 1، ص، 280

*** الغضارون: الذين يصنعون الغضار، وهو خزف يحمل لدفع العين، أو يصنعون الغضارة، وهي القصعة الكبيرة، أو يشتغلون بالغضار، وهو الطين اللازب الأخضر الحر.

[122] المصدر نفسه، ج،1، ص، 281

**** الخواصون: الذين ينسجون الخوص وهو ورق النخل

***** البوارون: الذين ينسجون الباري وهو الحصير المنسوج على النبات من الأشجار

****** الدقاقون: باعة الدقيق

[123] ن.م

******* الشيرجيون، الذين يصنعون الشيرج أو يبيعونه، وهو دهن السمسم، والعامة تقول سيرج

الطيور[125]، ومنها أحد الأجسام الحيوانية، من اللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقز كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدباغين والأساكفة والدنانين* والحذائين[126]، ومن الصنائع ماهي مقادير الأجسام كصناعة الوزانين والكيالين والذراعين، ومن الصنائع ما تقوم على الأشياء كصناعة الصيارفة والدلالين والمقومين[127].

«ومن الصنائع ماهي الموضوع فيها أجساد الناس كصناعة الطب والمزينين ومن الصنائع ما هو الموضوع فيها نفوس الناس كصناعة المعلمين أجمع وهي نوعان: عملية وعلمية[128].

ومن الصناع من يحتاج في صنعته إلى استعمال عضو من جسده، أو عضوين، وأداة من خارج، أو أدوات كثيرة [129]، كالحراث والبناء والدباغ والحائك وأمثالهم، فإن كل واحد منهم يحتاج إلى أدوات من خارج، وتحريك يديه ورجليه في صناعته، ومن الصنائع ما لا يحتاج فيها إلى أدوات من خارج[130]، بل يكفيه عضو من جسده، كالخطيب والشاعر والقاضي والقارئ ومن شاكلهم، فإن كل واحد منهم يكفيه لسانه حسب[131]، وكذلك الناطور والديدبان وأصحاب المراتب يكفيهم في صناعتهم العينان حسب، ومنهم من يستعمل في صنعته عضوين كالحاكي والنائحة، باليد واللسان[132]، ومنهم من يحتاج إلى استعمال جسده كله كالرقاص والسابح، ومن الصناع من يحتاج في صنعته إلى المشي كالساعي والماسح، ومنم من يحتاج إلى القعود دائما كالرفاء والنداف [133]، ومن الصناع من لا يحتاج في صناعته إلا إلى أداة واحدة، كالبواق والزمار والدفاف، ومنهم من يحتاج إلى أداتين كالخياط والكاتب، فإن الخياط يكفيه في صنعته الإبرة والمقص[134]، والكاتب يكفيه القلم والدواة، وأما

---

[124] رسائل إخوان الصفاء، ج، 1، ص، 281

- الرزازين: باعة الرز
- الشيرجيين: الذين يصنعون الشيرج أو يبيعونه، وهودهن السمسم

[125] رسائل إخوان الصفاء، ج،1، ص، 282

* الدنانون، صانع الدنان، جمع الدن

[126] ن.م

[127] رسائل إخوان الصفاء، ج، 1، ص، 282

[128] ن.م

[129] ن.م

[130] ن.م

[131] ن.م

[132] المصدر نفسه، ج، 1، ص، 283

[133] ن.م

[134] ن.م

استعمال الكاتب السكين فليس من صناعة الكتابة ولكن من صناعة النجارة، ومن الصناع من يحتاج إلى القيام دائما في صناعته كالحلاج ودقاق الأرز والذي يدير الدولاب برجليه[135].

«إن الصنائع البشرية نوعان علمية وعملية، وتقدم القول في العلمية فيما تقدم (في الرسالة السابعة) إن الصناعة العملية هي إخراج الصانع العالم الصورة التي في فكره ووضعها في الهيولي*...[136].

واعلم بأن المصنوعات أربعة أجناس بشرية وطبيعية ونفسانية وإلهية فالبشرية مثل ما يعمل الصناع من الأشكال والنقوش والأصباغ في الأجسام الطبيعية، في أسواق المدن وغيرها من المواضيع[137].

واعلم يا أخي بأن كل صانع من البشر محتاج في تتميم صنعته إلى ستة أشياء مختلفة، وهو السابع، وإلى سبع حركات، وإلى سبع جهات، فأما الأشياء المختلفة فهي الهيولي والمكان والزمان والأداة والألة والحركة والسابع النفس[138].

واعلم يا أخي أن موضوعات الصناع البشريين في صناعتهم نوعان فقط. بسيط ومركب، فالبسيط أربعة أنواع، وهي النار والهواء والماء والأرض، والمركب ثلاثة أنواع، وهي الأجسام المعدنية، والأجسام النباتية، والأجسام الحيوانية».[139]

يقول إخوان الصفاء، أن كل صانع من البشر لابد له من أداة أو أدوات، أو آلة وآلات يستخدمها في صنعته[140]والمقصود بالآلة هي جميع أعضاء الجسد البشري، كاليد، والأصابع، والأرجل، والعين[141]، أما الأداة

---

[135] رسائل إخوان الصفاء ، ج1، ص،283

* الهيولي: Matiére لفظ يوناني Hulé والمصطلح من أرسطو انتهى إليه من تحليل التغير، والهيولي ليست موضوع معرفة ثم هي ليست من بين المقولات إذ أن هذه تحمل عليها في حين أنها هي لا تحمل على شيء إنها مجرد قوة في مقابل الصورة، وحسب الجرجاني جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، محل للصورتين الجسمية والنوعية، انظر، مراد وهبة، المعجم الفلسفي (ط5)، القاهرة، دار قباء الحديثة، 2007، ص ص 668، 669

[136] إخوان الصفاء، وخلان الوفاء، قم مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي، جمادي الأولى 1405، ج1، ص، 277

[137] ن.م

[138] المرجع نفسه، ج، 1، ص، 278، وجاء تعريف الهيولي عند التهانوي أكثر وضوحا: هي عند الحكماء شيء قابل للصور مطلقا من غير تخصيص بصورة معينة ويسمى بالمادة كما وقع في بحر الجواهر، وجاء في كشف اللغات، الهيولي: الهيولي شيء تظهر فيه صور الأسماء، وذلك ما يسميه الصوفية: الأعيان الثابتة. والمتكلمون: حقائق الأشياء، والحكماء: ماهيات الأشياء، انظر، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج، 2، ص، 1747

[139] المصدر نفسه، ج،1 ص، 279

[140] انظر، إخوان الصفاء، ج،1، ص، 272

[141] ن.م

فهي تلك التي يستعملها في ورشته، ويتم بها إنجاز صنعته كالفأس، والمطرقة، والإبرة، والقلم، وما شاكل ذلك.[142]

دور النار في الصناعات:

واللافت أن إخوان الصفاء خصصوا فقرة تحت عنوان فصل في أن النار من الأدوات المفيدة في الصناعة[143] تحدثوا فيه عن حاجة الهيولي للنار، وربما كان الباعث على تخصيص هذه الفقرة للنار بسبب حاجة الهيولي إليها كما سيتضح بعد قليل، وعللوا ذلك بأن «أكثر الصنائع لابد من استعمال النار فيها، وكل صانع استعمل النار في صناعته فلأحد أسباب ثلاثة، إما في موضوعه كالحدادين والصفارين والزجاجين، ومن يطبخ الجص* والنورة** وأمثالهم، وغرضهم هو تليين الهيولي لقبول الصورة والأشكال، وذلك أنه لما كانت موضوعاتهم أحجارا صلبة لا تقبل الصورة والأشكال إلا بعد تليين بالنار، فإذا لانت أمكن الصانع أن يصنع الصنعة التي في فكره، فتصير الهيولي بعد قبولها تلك الصورة مصنوعة، ومن الصناع من يستعمل النار كالجرارين والقدوريين والغضارين، ومن يطبخ الآجر، وغرضهم في ذلك تقييد الصورة في الهيولي، وثباتها فيها لئلا تنسل منها الصورة بالعجلة، لأن من شأن الهيولي دفع الصورة عن ذاتها، ورجوعها إلى حالها الأول جوهرا بسيطا لا تركيب فيه، ولا كمية ولا كمية، ومن الصناع من يستعمل النار في موضوعه ومصنوعه كالطباخين والشوائين والخبازين وأمثالهم، وغرضهم تتميمها وتنضيجها ليتم الانتفاع بها».[144]

وتعليقا على ما سبق قد يبدو هذا الكلام غريبا لكن لا وجه للغرابة فيه، ففي ذهن الصانع بالفعل انطبعت فيه الصورة المثلى لصنعته وهو يستعمل النار لتحقيق هذه الصورة، وفي ذهن الفيلسوف فإن تلك الصورة المثلى تعكس ماهية الأشياء في الهيولي وبالتالي لا غرابة في الأمر.

مراتب الصناعات:

ميز إخوان الصفاء بين الحرف والصنائع ومن أجل هذا عقدوا فصلا أسموه: «فصل في مراتب الصناعات»[145] الصنائع مراتب حسب ما ورد في هذا الفصل، تأتي الصنائع التي دعت الضرورة إليها في

---

[142] إخوان الصفاء، ج،1، ص، 272

[143] رسائل إخوان الصفاء، ج،1، ص، 283

* الجص: أي الجبس:

** النورة: حجر الكلس، ثم غلبت على أخلاط تضاف إلى الكلس من زرنيخ وغيره وتستعمل لإزالة الشعر.

[144] انظر، المصدر السابق، ج،1، ص ص، 283، 284

[145] رسائل إخوان الصفاء، ج،1، ص،283، 284

المرتبة الأولى، ثم تتلوها صنائع خادمة وتابعة، وأخيرا تأتي صنائع متممة لها ومكملة[146]، وهناك صنائع جميلة وزينة أي تدخل في باب الفنون الجميلة باصطلاح عصرنا هذا الحراثة، والحياكة، والبناء، هذه الثلاثة ضرورية وأساسية وسائرها تابعة وخادمة ومتممة[147] فالحاجة والضرورة دفعت الإنسان إلى ابتكار اللباس عن طريق الحياكة، لأن الإنسان كما يقول إخوان الصفاء، لما خلق رقيق الجلد مجرد من الشعر والصوف والوبر والصدف والريش عكس الحيوان تماما فكر في إيجاد العوض، وستر جسمه للوقاية من البرد وغيره من عاديات الطبيعة المدمرة، والحياكة لا يتم بها وحدها المراد فلابد من صناعة الغزل، وصناعة الغزل لا تتم إلا بصناعة الحلج، فصارت هذه تابعة وخادمة لها.[148]

والإنسان بحاجة إلى الغذاء، والغذاء لا يتم إلا من حب النبات وثمر الشجر دعت الضرورة إلى صناعة الحراثة والغرس وهذا الأخير محتاج إلى إثارة الأرض وحفر الأنهار، ولا يتم هذا إلا بالمساحي* والفدن** والمساحي والفدن لا تكون إلا بصناعة النجارة والحدادة وصناعة الحديد محتاجة إلى صناعة المعدن وإلى صنائع أخرى.[149]

يصنع الصناع بأبدانهم وأدواتهم مصنوعاتهم والهدف طلب العوض أي الثمن من أجل صرفها على معيشتهم[150] ويشتري التجار البضائع وغرضهم بيعها من أجل زيادة أرباحهم والأغنياء هم الذين يملكون هذه الأشياء يجمعونها ويحفظونها مخافة الفقر[151]، في حين أن الفقراء هم من يحتاج هذه المصنوعات وغرضهم الغني، يسعون إليه سعيا حثيثا، ولن يتحقق هذا الهدف إلا عن طريق الاجتهاد وحذق الصنائع، وعدم تضييع هذه الحرف والصنائع أو التفريط فيها[152] وبهذا الأسلوب وحده يمكن تجنب الفقر الجاثم على أغلب الناس، وحتى الأغنياء سيتخلصون من عقدة الخوف من الفقر.[153]

---

[146] رسائل إخوان الصفاء، ج،1، ص،283، 284

[147] انظر، رسائل إخوان الصفاء، ج 1، ص، 284

[148] ن.م

* الماسحي: جمع مسحاة، وهي المجرفة من الحديد

** الفدن : جمع الفدان بالتخفيف

[149] رسائل إخوان الصفاء، ج، 1، ص، 285

[150] ن.م

[151] المصدر السابق، ج، 1، ص، 286

[152] ن.م

[153] ن.م

والهدف من كل هذا هو إصلاح الحلجات، وإيصالها إلى المحتاجين، ومتاع لهم إلى حين والغرض من تمتعهم إلى حين هو أن تصل النفس إلى المعارف الحقيقية والأخلاق النبيلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكية[154]، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل أن الهدف هو تمكين النفس من الصعود إلى ملكوت السماء والغرض من ذلك هو النجاة من بحر الهيولي وأسر الطبيعة، والخروج من هاوية عالم الكون والفساد إلى فسحة عالم الأرواح والمكث هناك.[155]

الصنائع تحتاج الفكر والتعقل:

كل الصنائع تحتاج إلى الفكر والتعقل ذلك أن الحرفي يستعمل عقله وتمييزه وفكره وهي كلها قوى روحية عقلية[156] بخلاف الزعم السائد لدى« بعض أهل العلم ممن ليست له خبرة بأمر النفس ولا معرفة بجوهرها أن هذه الصنائع المحكمة والأفعال المتقنة التي تظهر على أيدي البشر، الفاعل لها هو هذا الجسد المؤلف من اللحم والشحم والعظام والعصب بأعراض تحله مثل الحياة والقدرة والعلم وما شاكلها، ولم يعرفوا أن هذه الأعراض ليس حلولها في الجسم، وإنما هي أعراض نفسانية تحل جوهر النفس، وذلك أن الإنسان لما كان مجموعا من جسم ميت ونفس حية، وجدت هذه الأعراض في حال حياته، وفقدت في حال مماته، وليست الحياة شيئا سوى استعمال النفس الجسد، ولا الممات شيئا سوى تركها استعماله، كما أنه ليست اليقظة سوى استعمالها الحواس الخمس، ولا النوم شيئا سوى تركها استعمالها».[157]

والخلاصة التي خلص لها إخوان الصفاء: ليس الجسد هو الفاعل للحرف والصنائع، وإنما الفضل يعود إلى جوهر النفس، «وليست الحياة شيئا سوى استعمال النفس الجسد ولا الممات شيئا سوى تركها استعماله»[158]

شرف الصنائع:

وميز إخوان الصفاء بين الصنائع وخلصوا إلى أن لها شرفا وفضلا ذلك أنها تتميز من عدة وجوه عن بعضها البعض إحداها من جهة الهيولي، ومنها من جهة مصنوعاتها، ومنها من جهة الحاجة الداعية إليها، ومنها من جهة منفعة العموم، ومنها من جهة الصناعة نفسها والمثير هنا يستوقفنا حديث الإخوان عند حرفة الحمامين والسمادين* التي نعرف أنها من الحرف المنحطة من الناحية الاجتماعية عند المسلمين[159] ولكن

---

[154] رسائل إخوان الصفاء ، ج، 1، ص، 286

[155] ن.م

[156] ن.م

[157] المصدر السابق، ج، 1، ص، 287

[158] ن.م

* السمادون: الذين ينظفون الشوارع والأسواق من السماد

موقف إخوان الصفاء من هذه الحرف المنحطة كان لافتا: «وأما التي شرفها من جهة النفع منها للعموم فهي مثل صناعة الحمامين والسمادين والكناسين وغيرهم، وذلك أن الحمام المنفعة منه للصغير والكبير والشريف والوضيع والمدني والغريب والقريب والبعيد كلهم بالسوية لا يتفاضلون في الانتفاع به»[160] وتكرر نفس هذا الكلام في قولهم :« وأما صناعة السمادين والزبالين فإن الضرر في تركها عظيم عام على أهل المدينة، وذلك أن العطارين الذين الموضوع في صناعتهم مضاد للموضوع في صناعة السماديين، لو أنهم أغلقوا دكاكينهم وأسواقهم شهرا واحدا لم يلحق من ذلك من الضرر لأهل المدينة مثل ما يلحق من الضرر من ترك السمادين صناعتهم أسبوعا واحدا، فإن المدينة تمتلئ من السماد والسرقن* والجيف والقاذورات، وما يتنغص عيش أهلها من أجله».[161]

هذا الكلام له عدة أوجه فهو مؤشر على إدراك إخوان الصفاء لأهمية تنظيف المدينة الإسلامية في زمانهم، التي كانت عرضة للأوساخ دون شك كما أن كلامهم من جهة ثانية يشبه كلام الخضر حماة البيئة في الدول الصناعية المتطورة، والنخبة المستنيرة في القرن الحادي والعشرين فهو لايزال معاصرا رغم انه ينحدر إلينا من القرن الرابع الهجري، وقد نصطدم بالبون الشاسع بين كلامهم وكلام آخر صدر من نفس البيئة الثقافية التي خرج منها إخوان الصفاء، «وقد كره الحسن بن سيرين رضي الله عنهما التجارة في الصرف.

وسئل الحسن عن الصيرفي فقال الفاسق، لا تستظلن بظله، ولا تصلين خلفه، والبستاني، والحمال، والملاح، وصاحب الحمام، والخشخاش، والمزين».[162]

والمهن التي شرفها من الصناعة نفسها فهي مثل صناعة المشعبذين** والمصورين والموسيقيين وأمثالهم، «وذلك أن الشعبذة ليست شيئا سوى سرعة الحركة وإخفاء الأسباب التي يعملها الصانع فيها»[163] «وأما صناعة المصورين فليست شيئا سوى محاكتهم صور الموجودات والمصنوعات الطبيعية أو البشرية أو النفسانية حتى أنه يبلغ من حذقهم فيها أن تصرف أبصار الناظرين إليها عن النظر إلى الموجودات أنفسها،

---

[159] انظر R obert Brunschving Les Metiers Vils En Islam Stvdia Islamica Paris Maisonneuve Larose 1962 XVI P 46

[160] المرجع السابق، ج، 1، ص، 288

* السرقن: الزبل

[161] رسائل إخوان الصفاء، ج، 1، ص، 288

[162] المكي، (أبو طالب المكي محمد بن علي بن عطية) قوت القلوب، تحقيق، محمود إبراهيم إبراهيم محمد، القاهرة، مكتبة دار التراث، 1422 هـ، 2011، ج، 3، ص، 1663

** المشعبذون: المشعوذون وتقوم صناعتهم على خفة اليد، وإعمال السحر

[163] ن.م، ج، 1، ص، 288

بالتعجب من حسنها ورونق منظرها»[164] والمثير أن الإخوان لا يلقون بالا إلى الأحكام الصادرة في المجتمع المسلم الذي كان ينظر بغضب لأمثال هذه الحرف.

«وأما شرف صناعة الموسيقى فمن وجهين اثنين أحدهما من جهة الصناعة نفسها، والآخر من جهة تأثيراتها في النفوس، وأيضا من جهة تفاوت ما بين صناعها، وذلك أن الواحد منهم يضرب لحنا فيطرب بعض المستمعين، وآخر يضرب لحنا فيطرب كل المستمعين وقد يحكى أن جماعة من أهل هذه الصناعة كانوا مجتمعين في دعوة رجل كبير رئيس، إذ دخل عليهم إنسان رث الحال، عليه ثياب النساك، فرفعه صاحب المجلس عليهم كلهم، فتبين الإنكار في وجوههم، فأراد أن يبين فضله، فسأله أن يسمعهم شيئا من صنعته، فأخرج خشبات وركبها تركيبا، ومد عليها أوتارا كانت معه، وحركها تحريكا، فاضحك كل من كان في المجلس، من اللذة والفرح ثم قلب وحرك تحريكا آخر، فأبكى كل من كان في المجلس، من الحزن ورقة القلب، ثم قلب وحرك تحريكا فنوم كل من كان في المجلس، وقام وخرج فلم يعرق له خبر».[165]

وختم الإخوان كلامهم بأن حذق الصنعة هو التشبه بالصانع الحكيم الذي هو الباري جل ثناؤه، «وذلك أن الباري، جل ثناؤه، أعلم العلماء، وأحكم الحكماء وأصنع الصناع وأفضل الأخيار فلكل من زاد في هذه الأشياء درجة، ازداد من الله قربه »[166] يبدو أن الغاية التربوية هي التي أملت هذا الكلام، ولم يجد الإخوان وسيلة يمررون بها فكرهم الإصلاحي التربوي ويقنعون الناس الذين هم في غالبيتهم الساحقة مؤمنون أحسن من التشبه بالخالق، فلكي يبلغ الصانع الكمال عليه أن يتقن الصنعة كما أتقنها الخالق عز وجل.

قابلية الإنسان في تعلم الصنعة:

يختلف قبول الصبيان في تعلم الصنائع باختلاف طباعهم، وباختلاف طباعهم بحسب مواليدهم، [167]فمن الناس من هو مطبوع على تعلم صناعة واحدة أو عدة صنائع بسهولة لا يحتاج إلا إلى تأمل بسيط لمزاولة الحرفيين لحرفهم، فيحذق الصنعة فورا[168]، ومن الناس من يحتاج إلى تعلم دائم وتحفيز مستمر «وربما لا يفلح فيها إذا لم يكن فيها موافقا للطبيعة».[169]

---

[164] رسائل إخوان الصفاء ، ج، 1، ص، 288

[165] المصدر نفسه، ج1، ص، 289

[166] ن.م

[167] المصدر نفسه، ج1، ص، 290

[168] ن.م

[169] ن.م

ومن الناس من لا يتمكن البتة من تعلم الصناعة والسبب في ذلك حسب الإخوان «أن الصناعة لا تأتي للمولود إلا بدلالة كوكب متول لبرج العاشر من طالعه، وذلك أنه إذا استولى عليه من أحد الكواكب الثلاثة واحد فلابد من صنعة يتعلمها، وهي المريخ، والزهرة وعطارد وذلك أن كل صنعة فلابد لها منحركة ونشاط وحذق، فالحركة للمريخ، والنشاط للزهرة، والحذق لعطارد».[170]

وبالغ الإخوان في حديثهم عن تأثير الكواكب، وهو حديث لا طائل من ورائه، والظاهر أن الإخوان تأثروا باليونانيين، «ومن أجل هذا كان اليونانيون الذين كانوا في قديم الزمان، إذا أرادوا تسليم الصبي إلى صناعة من الصنائع، اختاروا له يوما من الأيام، وأدخلوه إلى هيكل الصنائع وصور سائر الكواكب، وقربوا قربانا لصنم دلك الكوكب الذي دل على صناعته».[171]

الخاتمة :

موضوع إخوان الصفاء و خلان الوفاء موضوع إشكالي في الفكر العربي الإسلامي سواءً تعلق الأمر بحقيقتهم التاريخية الغامضة ، فالمصادر القديمة أهملتهم و لم تعرهم اهتماما و لولا الإشارات الواردة في كتابين لأبي حيان التوحيدي ما كنا نعرف عنهم شيئًا ، و مع ذلك تنافس القدماء و المحدثون في طرح الفرضيات و الأسئلة و الإشكالات المتعلقة بهوية هؤلاء الأشخاص و بكل ما يتعلق بوجودهم التاريخي ، فكل شيء مبهم حول النشأة ، الاسم ، الأشخاص الذين كتبوا الرسائل و كذلك مذهبهم و غاياتهم و أهدافهم السياسية و الاجتماعية .

غير أن ما يميز إخوان الصفاء عن أضرابهم من المفكرين و الفلاسفة هو اهتمامهم بالفئات الدنيا المهمشة و المظلومة في المجتمع كأصحاب الحرف و الصُنّاع مثلا ، و يبدو أن النظرة الواقعية و الموضوعية التي عُرف بها إخوان الصفاء جعلتهم يدركون أهمية الحرف و الصنائع في المجتمع و معاناة هذه الفئة المنتجة العاملة و هذا هو سر كتابتهم عنهم .

---

[170] رسائل إخوان الصفاء ، ج1، ص، 291

[171] رسائل إخوان الصفاء، ج، 1، ص، 291